الأبعاد البلاغية والتركيبية للفظ القرآني بين الأداء والجمالية

مفيدة بنوناس*

الملخص :

تحاول هذه الدراسة الغوص في العالم الإعجازي للفظة القرآنية باعتبارها جزءا مهما في التركيب القرآني الذي كان و لا يزال الأنموذج اللغوي الأسمى الذي تشرئب إليه أعناق الدارسين ، وتهوي إليه أفئدتهم ، فتكشف للمتلقي جمالية أدائها الإبلاغي المعتمد على ثقلها المعنوي المتزن وقوة تركيبها على جميع المستويات اللغوية ، متخذين من آراء ابن الأثير والرافعي سندا في دراستنا الجمالية، كما سنركز على قيمة اللفظة في سياق الخطاب القرآني ، ونكشف سهولة فهمها وقرب تناولها من القارئ، فنؤكد بلاغة هذا الخطاب الذي كلما أرسل العلماء فيه البصر، وأجالوا فيه الفكر تكشفت حقائقه ، واستضاءت جوانبه .

Abstract :

This study tries to comprehend and go deep into this miracle Coran lexis which is an important element in Coran text structure and construction . This latter was and will always be a linguistic model attracting many scholars attention , trying to find out and discover its structural , linguistic and aesthetic construction images at all levels of language aspects , taking into account the views of many outstanding figures of language study as Ibn Athir, Rafai . Equally important , the study focuses the importance of the lexis word in the context of Coran discourse , uncovering the lasiness of its comprehension to the reader . In doing so , the study proves the relevance and greatness of this discourse , which , the more scholars and linguists deal with it , the more aesthetic and artistic aspects of this text are uncovered and lights are shadowed over its .

بسط منهجي :

يعد الخطاب القرآني المعين الأول الذي ينبغي أن يرجع إليه من وجد في نفسه قابلية للتأدب بأدب الدرس وأدب النفس ، كيف لا وهو خطاب أنزل بلسان عربي مبين ، تحدى أهل البيان بجودة سبك وإتقان .

* قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب واللغات ـ جامعة الطارف .Mofida2010@gmail.com

الخطاب القرآني ينتمي إلى اللغة ، ولكنه تميز بخصائص ومعان أدخلته حيز اللغة التي ليست كاللغة العادية ، وظل مفارقا لغيره من النصوص ، مهما أجاد البلغاء تقليده يعز المطلب حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز ويخرج من طوق البشر .

وهذا الخطاب القرآني بألفاظه وجمله ، نال العناية شديدة مما جعله يستولي على عقول الدارسين على اختلاف أزمنتهم ، وتباين مرجعياتهم الفكرية ، فقد إستفرغ النحاة القدامى الجهد في سبيل دراسته سنين عددا ، لكشف أنظمته المخبأة ، وأسراره التي لا تنقضي ، وعجائبه التي لا تنتهي ، وتوالت الجهود من بعدهم في تقصي أنماط بنائه ، وتضافرت لتبيان إعجازه .

وعلى هذا الأساس فقد آثرنا المزاوجة بين استخدام القدماء ، وتمثل آليات المحدثين وإجراءاتهم النقدية المتطورة في قراءة الخطاب القرآني وتحليله ، ليتبين جمالية اللفظ في البنية الداخلية للخطاب القرآني التي غدت في الدراسات الراهنة منهجا نقديا قابلا لدراسة أي نص .

وعليه ستعتمد الدراسة للحديث عن الأبعاد البلاغية والتركيبية للمفردة القرآنية على :

1ـ حسية الإبلاغ وقوة التركيب في اللفظ القرآني .

2ـ معايير جمالية اللفظ القرآني .

1ـ حسية الإبلاغ وقوة التركيب في اللفظ القرآني :

المتأمل للنص القرآني يجده مفتوحا على أبعاد كبرى في كل زمان ومكان ، يدعو أصحاب الأقلام الحرة إلى قراءة بنيته الجمالية قراءة واعية مدركة لأبعاد الجمال والجلال فيه ، بعيدا عن كل خلفية فكرية مريضة أو أحكام مسبقة[1].

لقد أسلمت الأمة العربية مقادتها لبلاغة القرآن إذ « لما قُرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته وكلماته في جمله ، ألحاناً لغوية رائعة ، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتُها هي توقيعها ، فلم يفتهم هذا المعنى ، وأنه أمر لا قبل لهم به ، وكان ذلك أبيَن في عجزهم »[2].

فسر جمال التعبير القرآني يبدأ بالأحرف بأعيانها لتتشكل اللفظة ، وكثيرا ما نحس بأن هذه اللفظة أجمل من اللفظة المرادفة لها في المعنى ، وليس الأمر

(1) ينظر حسن جمعة ، التقابل الجمالي في النص القرآني ، دار النمير للطباعة والنشر دمشق ، 205 ص9.
(2) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 9 ، 1393هـ 1973 ، ص 214.

إلا أن تكون أصوات الحروف جميلة تروق السمع ، فالمعول عليه إذا إنما هو جمال الصوت في ذاته ، وهو جمال محسوس يحتكم فيه إلى الأذن ، وقد أشار النقاد إلى طبيعة الصوت الذي يلذ للأذن ، وهو ذلك الذي يأتيها باعتدال وفق ما ركبت عليه ، فكأن للأذن مستوى في الاستعاب تجمل الأصوات حين تفد عليها في هذا المستوى ، وتقبح حين ترتفع فوقه أو تهبط دونه ، ومما يتصل بهذا عند النقاد العرب قول ابن طباطبا : « إن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت له ، إذا كان وروده عليها وروداً لطيفاً باعتدال لا جور فيه ، وبموافقة لا مضادة معها ؛ فالعين تألف المرأى الحسن وتقذى بالمرأى القبيح الكريه ، والأنف يقبل المشم الطيب ويتأذى بالمنتن الخبيث ، والفم يتلذذ بالمذاق الحلو ، ويمج البشع المر ، والأذن تتشوف للصوت الخفيض الساكن ، وتتأذى بالجهير الهائل ، واليد تنعم بالملمس اللين الناعم وتتأذى بالخشن المؤذي .وعلة كل حسن مقبول الاعتدال ، كما أن علة كل قبيح منفي الاضطراب »(1).

وقول مصطفى صادق الرافعي : « وليس بخفي أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي ، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت ، بما يخرجه فيه مداً أو غُنّة أولياً أو شدة ، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها ، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع ، أو الإطناب والبسط ، بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها ، مما هو بلاغة الصوت في الموسيقى »(2).

وغير بعيد عن هذا رأي ابن الأثير الذي ذهب إلى أن أساس جودة اللفظ هو أصوات حروفه مما يستلذه السمع ؛ فما استلذه من الأصوات التي تصدر عن مخارج الحروف هو الحسن الجميل ، وما استقبحه وأنكره هو القبيح المردود ، وكأنه يقول بموسيقية التعبير اللغوي ، وقد حدد ابن الأثير أن أداة الحكم الجمالي على ألفاظ اللغة هي« الذوق » ، فحكومة الذوق هي التي ترضي في مذهبه ، وما استحسنه الذوق السليم هو الحسن ، يقول : « واعلم ، أيها الناظر في كتابي ، أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم ، الذي هو أنفع مِن ذوق التعليم ، وهذا الكتاب ـ وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذاً ، وإذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا ـ فإن الدُّربة والإدمان أجدى عليك نفعاً ، وأهدى بصراً وسمعاً »(3) .

(1) ابن طباطبا ، عيار الشعر ، تحقيق : طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، 1956 م ، ص 14 ، 15 .

(2) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 215 ، 216 .

(3) ابن الأثير ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق محمد

وعنده لا يجوز التقليد إطلاقا في شأن الحكم على مفردات اللغة بالجمال والقبح ، والجمال مادي « فيزيقي » غير عزيز إدراكه على من أوتي ملكة التذوق السليم ، وإذا كان الناس قد درجوا على استحسان ما استحسنه الأجداد واستقباح ما استقبحوه فإن ابن الأثير لا يكيل بكيلهم ، ولا يحطب بحبلهم ، بل ينبغي عنده أن يتلمس الجمال ويتذوق ، يقول : « فإن استحسان الألفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ؛ لأنه شيء ليس للتقليد فيه مجال ، وإنما هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات ، إذا وجدت عُلم حسنه من قبحه »[1].

ويعتمد صاحب المثل السائر إلى المقايسة بقياس ضرب جمال يدرك بحاسة على ضرب يدرك بحاسة أخرى قصد الإقناع بـ « جمالية اللفظ القرآني » وإمكان تصيده ، فيقول : « ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار ، وصوتاً منكراً كصوت حمار ، وأن لها في الفم أيضاً حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم »[2] .

والحق أنه بزّ السابقين في النهل من معين القرآن ، فقد وقر في صدره أن بيان القرآن فوق كل بيان ، وعنده أن كتاب الله ضم في جنباته البيان بأسره .

لقد امتلك ابن الأثير ذائقة لغوية ممتازة ، تتحسس في مفردات اللغة وظيفة أخرى غير الوظيفة البيانية ، فذهب في الإدراك الجمالي للألفاظ مذهبا بعيدا ، فمن أجمل ما قيل في شأن إدراك المتلقي لدلالات التعبير وجمالياته قوله : « اعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص لها مهابه ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين وأخلاق ولطافة مزاج ، ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم ، واستلموا سلاحهم ، وتأهبوا للطراد ، وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبّغات ، وقد تحلّين بأصناف الحلي »[3].

وبعد أن حددنا روح الجمال اللغوي وجوهره لنمض إلى الخطاب القرآني لنبين الشواهد التي تؤيد ما ذهبنا إليه ، ونأخذ في بيان أسباب جمالية اللفظ القرآني ، وهو ما إليه صبونا منذ البدء ، وما نحن إليه ماضون ، وهولا يخرج عما أسماه ابن الأثير بـ « إمتاع الصوت للأذن » والمعايير التي نستند إليها بيانها فيما يلي :

محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة مصطفى الحلبي ، مصر ، 1358هـ 1939م ، 1 / 5 .

(1) المصدر نفسه ، 1 / 151 .

(2) المصدر نفسه ، 1 / 150 .

(3) المصدر نفسه ، 1 / 178 .

2. معايير جمالية اللفظ القرآني :

أ. عيار التأليف الصوتي :

يعتبر القرآن الكريم الأصل الأصيل للأصوات في اللسان العربي ، وقد حافظت أصواته على جوهرها بفضل جهود علماء القراءات والتجويد في تطبيق وترسيخ أحكام التلاوة الصحيحة ، وهي أصوات تميزها جمالية الائتلاف في أحرف المفردة الواحدة طالت أو قصرت ، وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام في عدد حروفها ومقاطعها ولكنها مع ذلك تخرج في نظمه مخرجاً سرياً ، وتكون من أحضر الألفاظ وأعذبها منطقاً ، وأخفها تركيباً كقوله تعالى : ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[1] فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف ، وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ، ومن نظم حركاتها ، وبذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات ، إذ تنطق على أربعة مقاطع ، وقوله : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾[2] فإنها كلمة من تسعة أحرف ، وهي ثلاثة مقاطع ، وقد تكررت فيها الياء والكاف ، وتوسط بين الكافين المدُّ الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها[3] وكلتاهما حسنة لائقة .

ب. عيار الائتلاف اللفظي :

اعتنى القرآن الكريم بالألفاظ من حيث كونها أبنية صوتية مادتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات ، وأيضا اعتنى بدلالتها من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب ، حتى إن أي مفردة في أي تركيب بمنزلة الفريدة من حب العقد ، إذا سقطت عز على الفصحاء سقوطها ، وهذه الدقة في الائتلاف اللفظي استرعت أنظار العلماء ، كيف لا وألفاظ القرآن هي لب كلام العرب و زبدته ، وما عداها وعدا الألفاظ المشتقات منها كالقشور والنوى بالنسبة إلى أطايب الثمر.

وإذا كان أهل الصناعة في اللغة العربية قد بذلوا جهدهم لوضع معايير يشترط بموجبها أن تكون اللفظة الفصيحة خالية من عيب تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوي ، واشترطوا أن يكون الكلام البليغ خاليا من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات والتعقيد ، ومن كثرة التكرار وتتابع الإضافات ، فالمتأمل في الخطاب القرآني المعجز يجده قد اخترق هذه المعايير ، ومع ذلك جاءت تعابيره على غاية من الدقة البيانية الجمالية سواء على مستوى الألفاظ أو

(1) النور ، الآية : 55 .
(2) البقرة ، الآية : 137 .
(3) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 229 .

التراكيب ، وهي من الكثرة في القرآن بحيث يعسر على المرء حصرها ، منها قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (1) .

فالمتأمل للآيات القرآنية يجد أن كلمة(أم) تكررت خمس عشرة مرة ، ومع ذلك جاء الخطاب القرآني في غاية الدقة والبيان البديعي بالرغم من التكرار .

ج. عيار سهولة النطق :

ويكون هذا إذا كانت المفردة مؤلفة من أحرف يسهل النطق بها ، سواء كانت الكلمة طويلة أم قصيرة ، وأيضا أن تكون مبنية من حركات خفيفة ليخف النطق بها ، وفي هذا قال ابن الأثير :« ومن أوصاف الكلمة أن تكون مبنية من حركات خفيفة ؛ ليخف النطق بها ، وهذا الوصف يترتب على ما قبله من تأليف الكلمة ، ولهذا إذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل ، وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة ؛ فإنه إذا توالت منها حركتان في كلمة واحدة استثقلت ؛ ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو والكسرة على الياء ؛ لأن الضمة من جنس الواو ، والكسرة من جنس الياء ، فتكون عند ذلك كأنها حركتان خفيفتان ، واعلم أنه قد توالت حركة الضم في بعض الألفاظ ، ولم يحدث فيها كراهة ولا ثقلاً ، كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ ، وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ؛ فحركة الضمّ في هذه الألفاظ متوالية ، وليس بها من ثقل ولا كراهة »(2).

وقد استوقفت هذه الألفاظ الرافعي وعدها خاصية للقرآن الكريم ، فقال : « ومن ذلك لفظة (النُّذر) جمع نذير ، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً ، فضلاً عن جَسْأة هذا الحرف ونبوِّه في اللسان ، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام ، فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه ، ولكنه جاء في القرآن على العكس ، وانتفى من طبيعته في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ ، فتأملْ هذا التركيب ، وأنعمْ ثم أنعم على ما تأمله ، وتذوق مواقع الحروف ، وأجر حركاتها

(1) الطور ، الآية 30 ـ 43 .
(2) ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، 1 /191 ، 192 .

في حس السمع ، وتأمل مواضع القلقلة في دال (لقد) ، وفي الطاء من (بطشتنا) ، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو)تماروا) مع الفصل بالمد ، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان ؛ ليكون ثقل الضمة عليه مستخفاً بعد ، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة. ثم ردد نظرك في الراء من (تماروا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النُّذُر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها ، فلا تجفو عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه ، ثم أعجب لهذه الغنَّة التي سبقت الطاء في نون (أنذرهم) وفي ميمها ، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في (النُّذُر) [1] ، وهو رأي غاية في الوجاهة .

د ـ عيار سهولة الفهم وقرب التناول :

تميز القرآن الكريم بلغته السهلة الممتنعة ، التي يدرك شيئا من دلالتها عامة الناس فيأنسون في أنفسهم قدرا من الفهم لمدلولاتهم ألفاظ الذكر الحكيم ، وهذه الصفة في القرآن الكريم تعتبر من مخايل اللغة الجميلة ، والبيان العالي ، ومكمن الجمال ها هنا سرعة انجلاء الدلالة لعقل المتلقي وغزوها لقلبه دونما إذن ، وقد تبين ابن الأثير آثار سهولة الفهم فقال معلقا على لغة فاتحة الكتاب المبين : « وإذا نظرنا إلى ما اشتملت عليه من الألفاظ وجدناها سهلة قريبة المأخذ ، يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب وعوّام السوقة ، وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة ؛ فإن أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله ، وفهم العامة معناه ، وهكذا فلتكن الألفاظ المستعملة في سهولة فهمها وقرب متناولها »[2].

وعدّها الرافعي صوت إعجاز القرآن الكريم « الذي يخاطب به كل نفس تفهمه ، وكل نفس لا تفهمه ، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة ، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أوفي أكثره ، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى ، ولكنه انفرد بهذا الوجه للعجز »[3].

ه ـ عيار ملائمة السياق :

أساس الملائمة هنا أن بعض الألفاظ أحق من مرادفها في أن تقع في جملة من الجمل ؛ فالسياق اللغوي قد يستجيد لفظا وينكر مرادفه مكانه ، على الرغم من أنه يتفق معه في الدلالة ، وذلك قد يرتبط بالسبك والتآلف بين الألفاظ ، وفي

(1) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 227 ، 228 .
(2) ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، 1 /157 ، 158 .
(3) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 217 .

هذا المقام قال صاحب المثل السائر : « ومن الذي يؤتيه اللهُ فطرة ناصعة يكاد زيتُها يضيء ولو لم تمسْسه نار حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها في موضعها. ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال ، وهما على وزن واحدة وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك ، وهذا لا يدركه إلا من دقَّ فهمه وجل نظره . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ماجعلَ اللَّهُ لرجلٍ من قلبين في جوفه﴾ وقوله تعالى : ﴿ ربِّ إنّي نذرتُ لك ما في بطني محرَّراً ﴾ فاستعمل الجوف في الأولى والبطن في الثانية ، ولم يستعمل الجوف موضع البطن ، ولا البطن موضع الجوف واللفظتان سواء في الدلالة ، وهما ثلاثيتان في عدد واحد ، ووزنهما واحد أيضاً ، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف يفعل ؟ »(1).

وقد يكون مرد الأمر ها هنا للدلالة الإيحائية لكل من اللفظتين ، فلفظة الجوف تختلف عن لفظة البطن ، إذ توحي الأولى بالضمور والعمق على عكس مادة البطن التي توحي بالنتوء والبروز والانكشاف ، وهذا أنسب للدلالة على الحمل من مادة الجوف .

ومن جهة أخرى نجد أن بعض المفردات القرآنية قد جملت كثيرا لمناسبتها للسياق الصوتي أو التركيب الذي وردت فيه ، وجماليتها ليست في ذاتها ، وإنما أحرزتها بموافقتها للسياق الذي وقعت فيه ، ومن ذلك في القرآن « لفظة (ضِيزى) فإنها في موضعها لا يسدّ غيرُها مسدَّها ، ألا ترى أن السورة كلها ، التي هي سورة النجم ، مسجوعة على حرف الياء ، فقال : ﴿والنجم إذا هوى ما ضلَّ صاحبُكم وما غوى﴾ وكذلك إلى آخر السورة ، فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وما كان بزعمه الكفار ، قال : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه ، وغيرها لا يسدّ مسدَّها في مكانها »(2).

وقد وقف الرافعي عند هذه الكلمة وبين من جمالها مظاهر كثيرة ، ومخايل لا يملك من يطلع عليها إلا أن يخفض جِناح الإقرار والتأييد ، قال : « وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه ، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه ، وهي كلمة « ضيزى » من قوله تعالى : ﴿ تلك إذاً قسمةٌ ضيزى﴾ ، ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه ، ولو أردت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها ؛ فإن السورة التي هي منها ، وهي سورة النجم ، مفصلة كلها على

(1) ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، 1 / 143 .
(2) المصدر نفسه ، 1 /156 ، 157 .

الياء ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ، ثم هي في معرض الإنكار على العرب ، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد ، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بناتٍ لله مع أولادهم البنات ، فقال تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ ، فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملائمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها ، الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة ، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل ، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية... وأن تعجب فعاجب لنظم هذه الكلمة الغريبة وائتلافه مع ما قبلها ، إذ هي مقطعان : أحدهما مد ثقيل ، والآخر مد خفيف ، وقد جاءت عقب غُنَّتين في« إذن » و« قسمةٌ ». وإحداهما خفيفة حادة ، والأخرى ثقيلة متفشية ، فكأنها بذلك ليست إلا مجاورة صوتية لتقطيع موسيقي ، وهذا معنى رابع للثلاثة التي عددناها آنفاً. أما خامس هذه المعاني ، فهو أن الكلمة التي جمعت المعاني الأربعة على غرابتها ، إنما هي أربعة أحرف »[1].

وهكذا عملت هذه اللفظة على التقريب بين أجزاء البيان ، والتأليف بين عناصره حتى تماسكت وتعانقت أشد التماسك والتعانق ، وذلك ليس بالأمر الهين ، بل هو مطلب كبير يحتاج إلى مهارة ، وحذق ، ولطف حس في اختيار أحسن الألفاظ لأحسن سياق .

و. عيار الرفق في التعامل مع الحس :

لقد تعامل القرآن الكريم مع الحس تعاملا خاصا ، فهو يرفق به ويسعى لإمتاعه ، ومن أمثلة هذا في القرآن الكريم ما وقف عليه ابن الأثير في قول العلي القدير : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾[2] ، فقال : « وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة في القرآن الكريم غصنا منه في بحر عميق لا قرار له. فمن ذلك هذه الآية المشار إليها ، فإنها تضمنت خمسة ألفاظ ، هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قدَّم فيها لفظة الطوفان والجراد ، وأخرت لفظة الدم آخراً ، وجعلت لفظة القُمَّل والضفادع في الوسط ؛ ليطرق السمع أولاً الحسن من الألفاظ الخمسة ، وينتهي إليه آخراً ، ثم إن لفظة الدم أحسن من لفظتي الطوفان والجراد ، وأخف في

(1) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 230 ، 231 .
(2) الأعراف ، الآية 133 .

الاستعمال ، ومن أجل ذلك جيء بها آخراً. ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق في استعمال الألفاظ ليس من القدرة البشرية »(1).

وقد وقف الرافعي عند هذه الآية وتبين أسباب الجمال فيها فقال مفصلا مبيّنا : « وما يشذّ في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز ، حتى أنك لو تدبرت الآيات التي لا تقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة ، وهي بالطبع مظنَّة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز ، فإنك ترى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها ، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه ، لنظم حروفه ومكانه من النطق في الجملة ، أو لنكتة أخرى من نكت المعاني التي وردت فيها الآية ، بحيث يوجد شيئاً فيما ليس فيه شيء . تأمل قوله تعالى : ﴿وأرسلنا عليهمُ الطوفانَ والجرادَ والقمَّلَ والضفادعَ والدمَ آياتٍ مفصلاتٍ﴾ فإنها خمسة أسماء ، أخفُّها في اللفظ (الطوفان والجراد والدم) وأثقلُها (القمَّل والضفادع) فقدَّم (الطوفان) لمكان المدّين فيها ، حتى يأنس اللسان بخفتها ، ثم الجراد وفيها كذلك مدّ ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفهما في اللسان وأبعدهما في الصوت لمكان تلك الغُنَّة فيه ، ثم جيء بلفظة (الدم) آخراً ، وهي أخف الخمسة وأقلُّها حروفاً ؛ ليسرع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتم بهذا الإعجاز في التركيب »(2) .

ز. عيار جمالية خاصة لبعض الصيغ :

المدقق في الاستخدام القرآني للمفردات يلاحظ أنه يصطفي صيغا صرفية خاصة للمفردات ، يلح عليها دون غيرها في استخداماته ، والممحص لها يدرك بعض الأسرار في إمساك القرآن بها ونبذ غيرها ، وتتصل بهذا مثلا بعض الألفاظ التي تكون جميلة في حال الجمع وغير جميلة في حال الإفراد ، وقد يحدث العكس ، ويسري قانون جمالية المفردة القرآنية ها هنا بإيثار الجميل واجتناب ما ليس كذلك « ومن هذا النوع ألفاظ يُعدَل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ، ولا يستفتى في ذلك إلا الذوق السليم ، وهذا موضع عجيب لا يعلم كنه سره فمن ذلك لفظة « اللب» الذي هو العقل لا لفظة اللب الذي تحت القشر ، فإنها لا تحسن في الاستعمال إلا مجموعة ، وكذلك وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وهي مجموعة ، ولم ترد مفردة ، كقوله تعالى : ﴿وليتذكَّر أولوا الألبابِ﴾ و﴿ إنَّ في ذلك لَذكرى لأولي الألبابِ ﴾ وأشبه ذلك وهذه اللفظة ثلاثية خفيفة على النطق ، ومخارجها بعيدة ، وليست بمستثقلة ولا مكروهة ،

(1) ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، 1 / 148 .
(2) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 234 ، 235 .

وقد تستعمل مفردة بشرط أن تكون مضافة أو مضافاً إليها »(1).

وقد استرعى هذا الرافعي فمضى يتبين ويتقصى حتى انتهى إلى قوله : « ومما لا يسعه طوق الإنسان في نظم الكلام البليغ ، ثم مما يدل على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر ، وكأنها صبَّت على الجملة صباً ـ أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعاً ، ولم يستعمل منه صيغة المفرد ، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها : كلفظة (اللب) فإنها لم ترد إلا مجموعة ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾وقوله : ﴿وليتذكر أولو الْأَلْبَابِ ﴾ ونحوهما ، ولم تجئ فيه مفردة ، بل جاء في مكانها (القلب) ؛ ذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع ، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية ، فلما لم يكن ثَمَّ فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة ، تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها ، نصباً أو رفعاً أو جراً ، فأسقطها من نظمه بتة ، على سعة ما بين أوله وآخره ، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة ، وهذا على أن فيه لفظة (الجب) ، وهي في وزنها ونطقها ، لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة في الجيم المضمومة »(2).

أما عن استخدام بعض الألفاظ مفردة فقط فمنه« لفظة الأرض ، فإنها لم ترد في القرآن إلا مفردة فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة معها في كل موضع من القرآن ، ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل : (ومن الأرض مثلهن) في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الذي خلق سبع سموات ومن الْأَرْضِ مثلهن﴾ ، ومما ورد من الألفاظ مفرداً فكان أحسن مما يرد مجموعاً لفظةً « البُقعة » ، قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، والأحسن استعمالها مفردة لا مجموعة ، وإن استعملت مجموعة فالأولى أن تكون مضافة كقولنا : بقاع الأرض ، أو ما جرى مجراها »(3).

كانت هذه الآيات البينات كلها شاهدة على جمالية المفردة القرآنية ، وإعجاز الخطاب القرآني الذي ما هو إلا « محاسن تتوالى وبدائع ترى »(4) بل هو كما وصفه عز وجل : ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾(5) .

(1) ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، 1 / 284 ، 285 .
(2) مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 232 .
(3) ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، 1 / 286 ، 287 .
(4) الباقلاني ، إعجاز القرآن ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، 1973 م ، 2 / 62 .
(5) هود ، الآية 01 .

إن القرآن الكريم خطاب معجز تحدى الملكة المبدعة لدى الإنسان ، ولا شك أن هذا الخطاب هو الذي هزّ عقل الوليد بن المغيرة ووجدانه ، وهو الخبير بأشعار العرب كما اخبر هو عن نفسه ، عندما أتاه أبو جهل وطلب منه أن يقول في القرآن قولا يدل على إنكاره وكراهيته له ، فقال وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه مشرف أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته[1] .

قائمة المراجع :

1ـ القرآن الكريم ، رواية حفص.

2 ـ ابن الأثير ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة مصطفى الحلبي ، مصر ، 1358هـ 1939.

4 ـ ابن طباطبا ، عيار الشعر ، تحقيق : طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، 1956.

5 ـ الباقلاني ، إعجاز القرآن ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، 1973.

6 ـ حسن جمعة ، التقابل الجمالي في النص القرآني ، دار النمير للطباعة والنشر ، دمشق ، ط 1 ، 2005.

7 ـ محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيمـ نظرات جديدة في القرآنـ ، دار القلم ، الكويت ، ط 4 ، 1977.

8 ـ مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 9 ، 1393هـ

(1) محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم ـ نظرات جديدة في القرآن ـ دار القلم ، الكويت ، ط 4 ، 1977م ، ص 101 .